فن الكاريكاتير: فضاء للتعبير وأفق للتعلم

دعاء دجاني

ألهمتنا إبداعات طلابية ظهرت خلال عملنا في التجربة التعليمية "البحر الميت يحتضر . . . مشكلة تقود التعلم"، التي ننفذها مع المعلمة حنان صلاح وطالباتها في الصف الحادي عشر الأدبي من مدرسة بنات دير جرير الثانوية، والمعلمة كريمة عوض الله وطالباتها في الصف الحادي عشر العلمي في مدرسة بنات سلواد الثانوية.

قامت الطالبات بإنتاج ما تعلمنه أثناء هذا العمل بطرق ووسائل عديدة، منها كتابة مقالة بحثية عن البحر الميت وخصائصه وأهميته وجفافه، والحلول المقترحة لإنقاذه، كذلك قمن بتوثيق مقابلات مع خبراء ومختصين حول هذه المشكلة، وتصميم لوحات رملية وجبسية لشرح المشكلة، وإعداد تجارب علمية إيضاحية عن الموضوع، وسيتم تفصيل هذه التجربة ومخرجاتها لاحقاً.

في هذه المقالة، سأتناول مخرجاً محدداً أنتجته طالبتان مبادرتان، فقد قامت كل من هديل حماد وهي إحدى طالبات الصف العلمي في مدرسة سلواد، والطالبة فداء عجاج وهي من طالبات الصف الأدبي في مدرسة دير جرير برسم بعض الرسوم الكاريكاتيرية حول موضوع البحر الميت. ولقد أعجبت بفكرة الرسوم، وبخاصة أنها معبّرة وجمعت النظرة التهكمية ودقة الملاحظة وسرعة البديهة معاً، وعندما شاهدتها زميلات فداء وهديل لاقت تجاوباً انفعالياً لديهن.

الكاريكاتير ... فضاء للتعبير

الكاريكاتير رقم (1)

في الكاريكاتير رقم (1) تتناول هديل مشروع قناة البحرين، وهو مشروع للربط الثلاثي بين البحر الأبيض المتوسط، والبحر الميت، والبحر الأحمر، ويرى المتحمسون لهذا المشروع أنه خلاّق، ومن فوائده الحيلولة دون جفاف البحر الميت، وتوفير المياه، وتوليد الكهرباء للأردن ولإسرائيل، والمساعدة على إعمار صحراء النقب واستيطانها، والمساعدة في الاستفادة من الزيت الحجري في المنطقة، كما أن هذا المشروع سيؤدي إلى ربط اقتصاديات إسرائيل والأردن وفلسطين، ما يساعد على إحلال السلام. في حين يرى المعارضون لهذا المشروع أنه مشروع صهيوني يؤدي إلى تسهيل الاستيطان الإسرائيلي في الضفة والنقب، وتسهيل سيطرة إسرائيل على الاقتصادين الأردني والفلسطيني، كما أنه سيؤدي إلى تعريض الغور ومحيطه لأخطار زلزالية، وتعريض البحر الميت لخطر خفض الملوحة، وبالتالي تختلف خصائصه ويفقد ميزاته.

لقد استطاعت هديل بطريقة هزلية رائعة أن توضح التباين في المصالح ووجهات النظر حول هذا المشروع، ما يدلل على موهبة لافتة لديها، فالفلسطيني يقول "يا حسرة . . . هينا صفّينا على جنب . . . مع هالقناة أو بدونها واحد"، في حين يقول الأردني "شوفوا نحن بنأيد تماماً مشروع القناة . . . خلّينا من شوية هالميات نروي هالشعب العطشان . . ."، أما الإسرائيلي فيضحك ويقول "مشروع القناة هو الحل الوحيد لإنقاذ البحر، لحتى نبرد مفاعل ديمونا النووي لأنه محتاجينو مستقبلا" . . . لقد استطاعت بلا شك، بشكل فني أن تظهر وعيها وفهمها لهذه القضية، وأن تعرضها بطريقة فكاهية وبسيطة وواضحة، وهي بذلك تدعو كل من يشاهد رسمتها للتفكير بمشروع قناة البحرين من زوايا عدة.

لقد كان من أهداف العمل في تجربة "البحر الميت يحتضر . . . مشكلة

تقود التعلم" أن تطور الطالبات المشاركات بُنية ذهنية تتسامح وتقبل غموض المشكلة أو الحالة، فأثناء محاولة الطالبات إلى التوصل إلى عملية المصالحة بين وجهات النظر المختلفة المتعلقة بقضية ما تتعلق بالمشكلة، يمكن أن يطورن تفسيراتهم وتأويلاتهم للقضية، فبدلاً من حفظ رأي واحد عن القضية وكأنه حقيقة مطلقة، يكون عليهن تبني تفسير وفهم من خلال اختبار تشابكات المشكلة عبر الرؤى المختلفة، فيدركن بذلك أنه ليس هناك "حل وحيد" أو "حل صحيح مطلق"، بل هناك آراء وإمكانات مفتوحة على تعدد الطرق ونسبوية الحل . . . من الجلي أن هديل أدركت التعدد في الآراء، وتجاوزت ذلك من خلال الإبداع في التعبير عن فهمها بطريقة فنية خاصة.

الكاريكاتير رقم (2)

في هذا الرسم تتلاعب فداء بالكلمات بذكاء، فالقاضي يقول "تعلن المحكمة رسمياً القضاء على البحر الميت بتهمة موت جميع الأسماك، بالموت شنقاً"، فيحتج الحاضرون "هذا حرام، كان طيب وحنيّن . . . كنا نسبح فيه ونحن مغمضين". تدرك فداء أن الحكم بالموت على البحر الميت هو فكاهة، وأننا نقول "ونحن مغمضين" أي واثقين تماماً، والناس يحتجون لأن البحر "طيب وحنيّن . . . "، لكنهم في الحقيقة لا يسبحون فيه مغمضين بسبب طيبته وحنيته، لكنهم يسبحون فيه وهم مغمضون بسبب الأملاح التي تؤذي عيونهم . . . بذكاء تترك فداء لنا أن نستنتج هذه الدعابة!

من الواضح أن هناك فكرة في رؤوس البنات يعبرن عنها بالرسم، فلم ترسم الطالبات هذه الكاريكاتيرات للزينة، بل لحث من يشاهد هذه الرسومات على التأمل، لقد وضعت كل من فداء وهديل أفكارها في خطوطها، فكانت رسومات معبرة وجميلة.

فرصة للتميز ولمشاركة الآخرين

لقد أثار العمل على مشكلة جفاف البحر الميت دافعية الطالبات واهتمامهن، لعل ذلك بسبب الدور النشط الذي قامت به الطالبات، فلقد امتلكن المشكلة بأنفسهن وسعين جاهدات إلى فهم المشكلة وحلّها. تقول إحدى الطالبات "**هذا المشروع شيق ومميز وأزال الروتين المدرسي وفيه أمور جديدة لم نقابلها في حياتنا**". وقد ذكرت معظم الطالبات أنهنّ كن يشعرن بالمسؤولية والتحدي في هذا العمل، فقد كان عليهن التخطيط والتنفيذ والتقييم والعرض، وقمن بالبحث والاستقصاء وإجراء المقابلات، وعندما كن يعرضن ما توصلن إليه كن بمثابة الخبيرات، وكانت المعلمات يصغين إليهن وتسألهن لمعرفة الإجابة، فقد كانت هناك حاجة لأسئلة المعلمة، ولم تكن الأسئلة بهدف التقييم والفحص فحسب . . . كل هذا زاد من حماسة الطالبات وأثار دافعيتهن. إضافة إلى ذلك، فقد ولّد العمل في هذه التجربة شعوراً بالانتماء لدى الطالبات، ففي حين أن كل طالبة كان لديها الرغبة بالتميز، كانت هناك حاجة ماسة لمشاركة الآخرين، وإلا فإن المنتج النهائي للمشروع لن ينجح مهما كان العمل الفردي جيداً، لذلك عملت كل طالبة بما لديها من إمكانات وقدرات ومواهب لتساهم في فهم المشكلة وحلّها، من ثم عرضها، فقد كانت الرغبة في النجاح رغبة حقيقية لدى الطالبات كأفراد وكمجموعات. يذكر أحد أولياء الأمور أن ابنته "**كانت متفاعلة ومتحمسة للمشروع طوال الوقت، وكان لديها شعور بالمسؤولية، وبأنها جزء أساسي من العمل، لذلك كانت متوترة بعض الأوقات عندما يحين موعد تسليم الجزء المنوط بها من العمل**".

لعل أهم ما أثار دافعية هديل وفداء وكل الطالبات المشاركات للعمل بحماس في مشروع "البحر الميت يحتضر . . . مشكلة تقود التعلم" هو إعطاؤهن فرصة للتعلم من خلال العمل، وإتاحة المجال لكل منهن لتبرز موهبتها وقدراتها بشكل منفرد في عمل اختارته عن رغبة، دون أن يتم تقييم كل الطالبات بالأسلوب نفسه وإخضاعهن جميعاً للمقاييس نفسها. إن العمل في هذه التجربة أتاح للطالبات فرصة التميّز، فكانت هناك منتجات متنوعة بحسب تباين اهتمامات الطالبات وقدراتهن، فكل طالبة قامت بأداء يبرز جوانب القوة لديها، واستعانت بالطالبات الأخريات لإتمام ما تعجز عن القيام به وحدها بشكل جيد. ولقد عبّرت الطالبات عن ذلك في سجلاتهن؛ فقد كتبت إحدى المشاركات "**لم أكن أعلم أن موضوعاً كهذا سيجعلني أكتشف أشياءً في شخصيتي كنت أظن أنني عكسها تماماً، فالجميع يعلم أنني اتكالية جداً وآخذ الأمور بمزح واستخفاف، إلا أنني أخذت هذا المشروع بجدية كبيرة، لدرجة أن أختي تعجبت من فعلي هذا، فقد قمت بالبحث والقراءة والعمل وحدي، واحتجت إلى مساعدة صغيرة في الترجمة فقط**". وكتبت طالبة أخرى أنه خلال العمل "**ظهرت جوانب من شخصيتي، وساعدني هذا على تعزيز بعض المواهب، بالتحديد عند المقابلات، أو العمل في مشاريع المعرض**". إن التأمل فيما أنجزته الطالبات من منتجات في هذه التجربة يبرز بشكل إيجابي الفروق الفردية لديهن بشكل أثرى العمل الجماعي وأغناه، وقد تميزت كل من هديل وفداء بالرسومات الكارتونية، وتميزت أخريات في الأعمال اليدوية، وفي القدرة على إدارة لقاءات وإجراء مقابلات أو تصميم تجارب. إنه من المؤسف حقاً أن التعليم المدرسي التقليدي يغيب هذه الفوارق الفردية، ويتوقع من الطلبة كافة أداء واحداً يحاكي ما هو موجود في الكتاب، وما تقوله المعلمات، حيث يكون الطالب الأفضل هو الذي تطابق إجاباته في الامتحانات النصوص والحلول الموجودة في الكتب المدرسية، وبالتالي يضّيق التعلم التقليدي كل فرصة للتميز وللإبداع. فطالبات موهوبات كفداء وهديل يجب أن تتاح لهن كل فرصة للتعبير عن هذه الموهبة بشكل مدروس ومنظم، لا أن تترك هذه الفرصة للظروف، كمصادفة الاشتراك في معرض، أو

العمل ضمن مشروع، فقد لا تتمكن أيٌّ منهن أن تبرع في الرياضيات أو اللغات، لكنهن بالتأكيد مميزات بطريقة خاصة، ربما تمكنهن من الوصول إلى مكانة أمية جحا.

الكاريكاتير ... أفق للتعلم

شيء آخر أوحته إلي هذه الرسوم، وهو إمكانية توظيفها في الحصص المدرسية لحث الطلبة على التفكير والنقاش والحوار والتعبير عن الذات. فمن الملاحظ أن التعليم الرسمي يهمل قوة وسطوة التعبير المرئي من الصور والرسومات بشكل عام، والكاريكاتير بشكل خاص، ولا يوظفها كوسيط تربوي، في حين أننا لو أخذنا رسمة ما، وحاولنا وصفها بدقة، فإننا نحتاج إلى عشرات الكلمات، وهناك مثل مفاده "أن صورة واحدة تساوي ألف كلمة". [1] ولهذا، يمكن الإدعاء بأن هذه الرسومات الكاريكاتيرية يمكن أن تشكل طريقة فعالة للنقاش وللحوار وللتفكير.

أثناء عملنا في تجربة "البحر الميت يحتضر... مشكلة تقود التعلم" قمنا بمراجعة الكتب المدرسية، وقد تبين لنا أن الكتب المدرسية تتطرق لدراسة البحر الميت بشكل متناثر وتقدم خصائصه وجغرافيته تارة وأهميته السياحية تارة أخرى ويفترض من الطلبة حفظ هذه المعلومات لحين الاسترجاع. وعلى سبيل المثال لا الحصر يتكرر موضوع البحر الميت في المواضيع الدراسية التالية:

الموضوع في الكتب المدرسية	المادة التعليمية/ الصف
لغتنا الجميلة ج1-الثروات الطبيعية (البحر الميت)	الصف السابع
The Dead Sea	English for Palestine-11 Grade
السياحة في فلسطين، الأماكن العلاجية في فلسطين..	التربية الوطنية-الصف السابع/ الوحدة الرابعة: السياحة في فلسطين.
أهمية موقع فلسطين، السطح والتربة في فلسطين، الأقاليم المناخية في فلسطين.	جغرافية فلسطين-الصف السابع/ الوحدة الأولى.
البنية الجيولوجية والتضاريس حفرة الانهدام العربية رسم خارطة فلسطين وتوضيح مناطق حفرة الانهدام	جغرافيا الوطن العربي/ الصف التاسع/ الوحدة الثانية: البنية الجيولوجية والتضاريس

وهنا دعوة لمعلمي هذه المواد أن يحاولوا الخروج عن المألوف قليلاً، وإتاحة الفرصة للطلبة للتفكير والتعبير عن الذات والنقاش الفعال، من خلال توظيف هذه الرسوم الكاريكاتيرية. [2] فالرسم يستقطب النظر بسرعة أكبر من الكتابة، ويحكي أكثر من الكلام، كما أنه من المناسب استخدام رسومات الكاريكاتير مع طلاب مختلفين من حيث المرحلة ومن حيث الاهتمامات، ويمكن لكل واحد من الطلبة تأويل الرسم بطريقته الخاصة، بما يتناسب مع مستواه الإدراكي والعاطفي والثقافي، وينميه في الوقت ذاته.

هناك إستراتيجيات عدة يمكن اتباعها لتوظيف الرسوم الكارتونية في التعليم، حيث يمكن استخدام الرسوم الكرتونية الملائمة لموضوع ما من أجل التهيئة والتشويق، ولافتتاح الحصة بطريقة غير تقليدية، ويمكن توظيفها لحث الطلبة على التعبير عن مشاعرهم وآرائهم حول الموضوع، كذلك قد تكون الرسوم الكارتونية مثيراً يدعو الطلبة للكتابة عن الموضوع، وقد تحذف الكتابة من الرسم الكاريكاتيري ليكتب كل طالب ما يرتأيه مناسباً على الرسمة بدلاً من التعليقات الأصلية. وأخيراً، قد تحفز الرسومات الكارتونية الطلبة على الرسم، فتكون بذلك فرصة للكشف عن الطلبة الموهوبين.

وفيما يلي عرض لبعض المقترحات التي يمكن من خلالها توظيف الرسومات الكارتونية التي أنتجتها فداء وهديل في الحصص المدرسية حول موضوع البحر الميت.

في بناء موضوع التعلم والتشويق له

يمكن استخدام هذه الرسومات كتهيئة لدرس عن البحر الميت، وببساطة يمكن للمعلمة أن تعرض الرسمة رقم (3) مكبرة وتسأل الطالبات عنها أسئلة تهيئ لموضوع الدرس. فمثلاً هذا الرسم الهزلي والتفكير بـ "طب هسّه من وين بدنا نروح نجيب سمك، والله حيرتوني" سوف يثير المرح في الصف، ويكون ملائماً لبدء نقاش عن خصائص البحر الميت وتفرده وميزاته.

الكاريكاتير رقم (3)

ويمكن توظيف الرسمة رقم (4) لمناقشة خصائص البحر الميت وتسميته، بعد اكتشاف الطحالب، فالرسمة تصور باحثاً يلاحظ الطحالب ويفكر "أووه... البحر الميت ما طلع ميت... البحر الميت لساتو حي"، يمكن استخدام هذه الرسمة لاكتشاف المعرفة المسبقة لدى الطلبة عن البحر الميت وخصائصه.

الكاريكاتير رقم (4)

حقيقة ورأي ومشاعر... لترجمة الذات في كليتها

هناك إمكانية للعمل مع الطلبة في مجموعات صغيرة من 4-6 طلاب، فيمكن للمعلمة أن تختار خمسة طلاب لتنفيذ النشاط طواعية أمام بقية الصف، ويجب أن يكون مع الطلبة نسخ متطابقة من رسمة الكاريكاتير نفسها، ويمكن أن يتأملوا في الرسمة مدة دقيقتين، ثم يبدأ أحدهم "أشاهد في هذه الرسمة . . . . . " . وفي هذا المستوى عليه أن يصف ما يشاهده فقط دون إبداء رأيه به، أو ماذا يعني له. إذا أخطأ أحد الطلاب فأبدى رأيه، عليه أن يعيد النظر إلى الكاريكاتير ليجد شيئاً في الرسمة ويصفه، ويستمر الطلبة المشاركون بهذا العمل حتى تكتمل الحلقة، فيحكي كل منهم عما يشاهده في الرسمة، ويفضل تكرار الدور في الحلقة نفسها لأكثر من مرة لحث الطلبة على الانتباه للمزيد من التفصيلات في الرسم.

ثم ينتقل الطلبة بعد ذلك إلى حلقة الرأي، حيث يبدون رأيهم في الرسم قائلين "عندما أشاهد هذه الرسمة أفكر أنه . . . . " . ومن المهم أن تشجع المعلمة الطلبة على إتمام الحلقة أكثر من مرة، حتى تحفز الطلبة على إبداء آرائهم وحتى يتفاعلوا مع الآراء التي أبداها الطلبة الآخرون.

وأخيراً يقوم الطلبة بإبداء مشاعرهم حول رسمة الكاريكاتير هذه، "عندما أشاهد هذه الرسمة أحسّ بـ . . . . . " .

إن هذه الحلقات التي تطلب من الطلبة وصف رسم الكاريكاتير كما هو، وإبداء الرأي فيه، والحديث عما يولده من مشاعر، يثير التفكير في موضوع الرسم ويشجع التعبير عنه.

وبالتأكيد، فإن كل مجموعة سوف تفهم الرسمة نفسها بطريقة مغايرة، تحددها الخلفية الثقافية أو الاجتماعية، فمثلاً قد تختلف مشاعر من يذهب للسباحة في البحر الميت مرات عدة كل شتاء عن من لم يزره مرة واحدة في حياته (وهذا حال الكثير من الطالبات المشاركات في التجربة).

وقد تثير الرسمة رقم (5) الكثير من النقاش والجدل، حيث يظهر جندي إسرائيلي متغطرساً يقول "يللا اشتغلو أكثر . . . خلينا نستولي على البحر كله ونخلي المنطقة مصانع إسرائيلية وبس" . وهنلك أردني يفكر "والله بيستخرجوا أملاح وبوتاس كثير من البحر. . . بس يللا كلنا واحد" . ما معنى كلنا واحد؟ وهل يتفق الطلبة على ذلك؟

الكاريكاتير رقم (5)

إن هذا النشاط يمثل فاعلية ذات مسار متنام يحول المشاهدة من عمل آلي تعودي إلى لحظة تأمل متدرجة، وقراءة واعية، عبر ربط المشاهدة كعملية نفسية عقلية فيزيائية، بمستويات تعبير متدرجة متناغمة: الوصف، وتكوين الرأي، والتعبير العاطفي، عملية تحدث بشكل آلي يأتي التمرين ليعيدها للوعي ليعمقها ويتعمق بها.

دعوة للكتابة ومساحة للتعلم

يمكن للمعلمة أن توظف الرسومات رقم (6) و(7) كمحفّز للكتابة، فمن الممكن أن تعرض إحدى هذه الرسومات وتطلب من الطلبة:

- كتابة عناوين جريدة عنها، قد يكون بعض هذه العناوين جدياً، والبعض الآخر هزلياً.
- كتابة قصة حول الرسمة.
- كتابة خبر في الجريدة حول الرسمة.
- كتابة تعليق عن الرسمة.

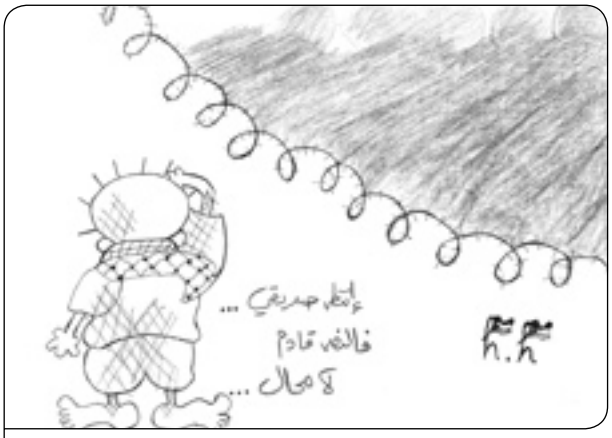

الكاريكاتير رقم (6)

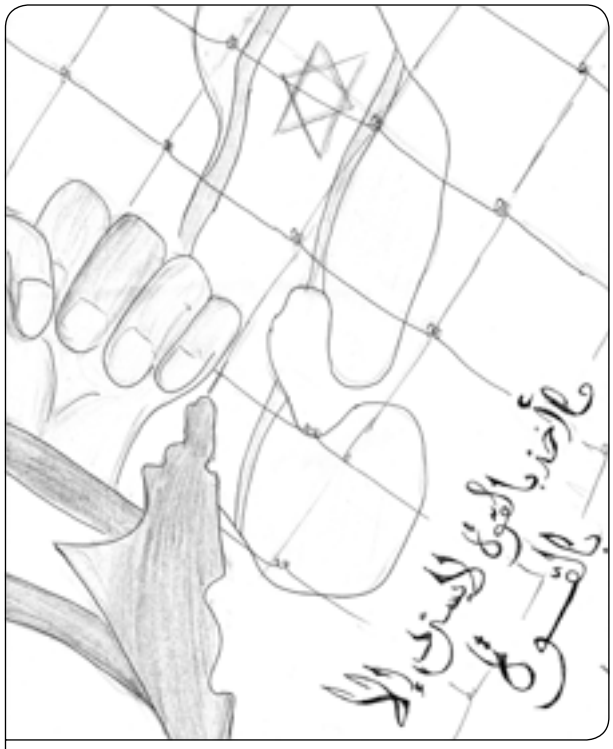

الكاريكاتير رقم (7)

الفقاعات الفارغة: اختلاف الرؤى وتعدد الأصوات

من الممكن حذف كل الكلمات التي في الرسم الكاريكاتيري ووضع فقاعات فارغة ليكتب الطلبة فيها ما يعتقدونه مناسبا، أو ربما تبدأ المعلمة بحذف ما يقوله أحد الأشخاص، وتضع بدلاً منه فقاعة فارغة مع المحافظة على كلام الشخصية الأخرى أو تفكيرها.

فمثلاً، في الرسم رقم (8) تصوّر هديل في هذه الرسمة الأسطورة اليهودية حول اصطياد السمك من شاطئ البحر الميت، ترى ماذا سيقول هذان الصيادان؟

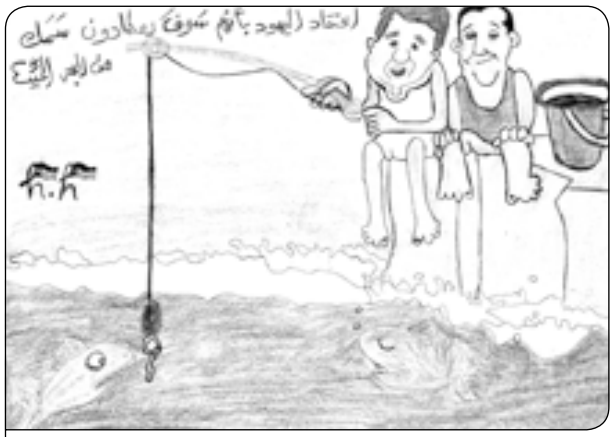

الكاريكاتير رقم (8)

وفي الرسم رقم (9) تستوحي فداء الفكرة من التراث القصصي العربي، فنرى مارداً يخرج لشخص على شاطئ البحر الميت، ماذا يسأل هذا الشخص الفقير المارد أن يحقق له على شاطئ البحر الميت؟

الكاريكاتير رقم (9)

رسم كاريكاتير حول الموضوع

وقد تقوم المعلمة بتشجيع الطلبة الهواة على رسم كاريكاتير خاص بهم، يعبرون من خلاله عن فهمهم وتساؤلاتهم حول موضوع البحر الميت.

من البديهي أن هذه الاستراتيجيات لتوظيف الكاريكاتير في غرفة الصف، كمحفز للنقاش وللتفكير والكتابة، تلائم المواضيع والمحتويات التعليمية كافة، وليس موضوع البحر الميت فحسب، لكنني كتبت هذه الأفكار بوحي من رسومات هديل وفداء المشاركات في مشروع "احتضار البحر الميت... مشكلة تقود التعلم"، وقد تضمنت هذه المقالة بعضاً من هذه الرسومات، وكان هذا ما استفدت منه وتعلمته من الطالبات المشاركات في التجربة ومن رسوماتهن وكلماتهن المفعمة بالأحاسيس والدفء والمعاني.

دعاء دجاني – مركز القطان

الهوامش

[1] A picture is worth a thousand words.

[2] يمكن الحصول على الرسوم في المقالة من خلال الكتابة لـ: duaa@qattanfoundation.org